تقدمهم الشاعر أبو البقاء بأبياته التي لم تُحرك ساكنًا

"بايزيد الثاني"

قابل وفد الأندلسيين بقلبٍ بارد

على الرغم من إحياء العثمانيين الجدد لقضية الأندلس، إلا أنها في النهاية ليســت إلا قصة من قصــص البطولات المزورة وإعادة تزوير تاريخ ســلاطين بني عثمان الذيــن قدموا مصالحهم التركية على أي مصلحة أخرى.

التزوير الذي يقوم به العثمانيون الجدد ليس إلا توظيفًا سياسيًّا موجهًا إلى عوام المسلمين الذين لا يعرفون تاريخ العثمانيين الحقيقي في خذلان مسلمي الأندلس وتركهم لمصيرهم، فقد تزامن سقوط الأندلس مع تولي السلطان بايزيد لأمر الدولة العثمانية. فمع فرض إسبانيا أسوأ أنواع التعذيب ضد مسلمي الأندلس وما فعلته محاكم التفتيش هناك؛ لم يكن أمام أهل الأندلس سوى الاستعانة بالدولة العثمانية وغيرها من قيادات العالم الإسلامي، فبدأوا بإرسال الوفود والسفراء إلى السلطان بايزيد الثاني.

ومن المصادفة التاريخية؛ تزامن سقوط الأندلس مع سقوط الخلافة الإسلامية العباسية في القاهرة على يد سلاطين بني عثمان، كما سقطت الخلافة الأموية الأندلسية على يد الصليبيين الإسبان.

الفترة نفسها التي حكم فيها بايزيد الثاني وابنه سليم الأول السلطنة العثمانية بين (1481 م-1520م)، وبدلاً من نجدة الأندلس اتجهت جيوش سليم لتدك البلدان العربية الإسلامية من الشام إلى مصر ثم إلى الحرمين الشريفين، بينما كانت معاقل الأندلسيين تتساقط واحدة تلو الأخرى في الفترة ما بين (1490م- 1526م).

كان نشاط بايزيد الثاني وابنه سليم الأول من بعده منحصرًا في الجبهة الجنوبية إذ كان الخلاف مع المماليك يتصاعد يومًا بعد آخر حينها، حيث تمكنت قوات المماليك من هزيمة العديد من الجيوش العثمانية. كما أدت سياسة بايزيد في المهادنة مع الصفويين في إيران إلى اندلاع العديد من الحركات المعادية للعثمانيين، وسمح بمزيد من النفوذ الصفوي في الأناضول، في الوقت الذي كان فيه الأندلسيون يذوقون العذاب على يد متطرفي المسيحية في غرناطة، وكان العرب المسلمون يذوقون عذابًا من نوع آخر من العثمانيين الذين احتلوا القاهرة وقتلوا عشرة آلاف من سكانها المدنيين.

ومع ذلك تستمر الآلة التركية الجديدة في الترويج الأكاذيب واختلاق البطولات الوهمية عن بايزيد الثاني وابنه سليم الأول، اللَّذَين تخلَّيَا عن الأندلس، وتركاها لمصيرها المؤلم.

المؤدلجون تجاوزوا موقف العثمانيين من صرخات الأندلسيين في عهد بايزيد الثاني وابنه لأنها مُخجِلة.

ينقل الباحث **"عبد السلام كمال"** تفاصيل وصول وفد أندلسي على عَجَل إلى إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية التي كان على رأسها السلطان بايزيد الثاني ابن محمد الفاتح، إذ قام رئيس الوفد بتسليم رسالة استغاثة مؤثرة حفظها التاريخ من مسلمي الأندلس إلى السلطان، وأورد في مقدّمتها:

"الحضرة العلية! وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهّد أقطارها، وأعزّ أنصارها، وأذلّ عُداتها. حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، وسلطان

الإســلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإســلام، وناصر دين نبينا محمد، مُحيي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، مِلك العرب والعجم، والترك والديلم، ظل الله في أرضه، القائم بســنته وفرضه، ملك البرّين، وسلطان البحرين، حامي الذِّمار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا، وكَهفنا وغيثنا.. ما زال ملكه موفور الأنصار، مقرونًا بالانتصار، مخلّد المآثر والآثار، مشــهور المعالي والفخار، مستأثّرًا من الحســنات بما يضاعف الأجر الجزيل، في الدار الآخــرة والثناء الجميل، والنصر في هذه الدار، ولا برحت عزماته العليّة مختصة بفضائل الجهاد، ومجردة على أعداء الدين من بأســها، ما يروي صدور الســفح والصفاح، وألســنة الســلاح، بَاذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخاير، مفارقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد".

وعلى الرغــم من هــذا الوفد الأندلســي، والخطاب الراقي المبين للحــال التي وصل إليها مســلمو الأندلس؛ إلا أن شــيئًا لم يحدث من قبل بايزيد ولا ابنه سليم من بعده.

"فضيحة العثمانيين في الأندلس مدويَّة."

وفي أبيات شعرية تلخص الاستنجاد الذي لم يحصل والخذلان العثماني لمسلمي الأندلس، للشــاعر أبي البقاء صالح بن شريف يصف مأساة المسلمين في الأندلس وغدر الأعداء بهم، يقول:

سـلام عليكم من عبيــد تخلّفوا ... بأَندلسٍ بالغــرب في أرض غربة
أحــاط بهـم بحرٌ من الردم زاخـر ... وبحـر عميــق ذو ظــلام ولجـة
سـلام عليكم من عبيــد أصابهم ... مصاب عظيـم يا لها من مصيبـة
سـلام عليكم من شيـوخ تمزّقت ... شيوخهـمُ بالنتف من بعد عــزة
سـلام عليكم من وجوهٍ تكشفـت ... على جملة الأعـلاج من بعد سُتـرة
سـلام عليكم من بنــات عواتِـق ... يسوقهـم اللبّــاط قَهـرا لخلـوة
سـلام عليكم من عجائز أُكرهـت ... على أكــل خنـزيـر ولـحم جيفـة

وعلى الرغم من أن القصيدة تشــرح غدر الإســبان، وكيف يقومون بتنصير المســلمين قهرًا وجبرًا، وكيف أن المســلمين جاهدوا، ولكنهم قلــة أمام جموع الأعداء إلا أنها لم تســتنهض الغيرة الإسلامية عند بايزيد الثاني:

غُـــدرنا ونُصِرنـا وبُـدّل ديننـــا ظُلمنـــا وعوملنـــا بكـل قبيحـة
وكنـــا على ديـن النبـــي محمـد نقاتـــل عمـال الصليـــب بنيـة
ونلقى أمـورًا في الجهـاد عظيمـة بقتـــل وأســـر ثـم جـــوع وقلـة
فجاءت علينا الروم من كل جانب بجـد وعـــزم من خيـــول وعـدة
فكنا بطول الدهـر نلقى جموعهم فنقتـل فيهـــا فرقـة بعد فرقـة
وفرسـانها تـــزداد في كـل ساعـة وفرسـاننا في حـــال نقص وقلـة
فلما ضعفنـا خيمـوا فـي بلادنا ومالـــوا علينـــا بلـدة بعد بلـدة
وجـــاءوا بأنفـاظ عظـام كثيـــرة تهـــدم أسـوار البـــلاد المنيعـة
وشـــدوا عليهـا الحصـــار بقـــوة شهـــورًا وأيامـًا بجـد وعـزمـــة
فلما تفـانت خيلنـــا ورجالنـــا ولـــم نـر من إخواننـــا من إغاثـة
وقلـت لنـــا الأقـوات واشتد حالنا أحطناهمُ بالكُـره خوف الفضيحـة
وخوفًـــــا على أبنائنـــا وبناتنـــا من أن يؤسروا أو يقتلوا شـر قتلة
على أن نكـون مثل من كان قبلنـا من الدجن من أهل البلاد القديمـة

ولا يتوقف الشاعر الأندلسي عن الاستنجاد بسلطان الدولة العثمانية:

فهـا نحن يا مـولاي نشكـو إليكـم فهـذا الذي نلنـاه من شـــر فرقـة
عســى ديننـا يبقى لنـــا وصلاتنـا كمـا عاهدونـا قبل نقض العزيمة
وإلا فيجلونـــا جميعًا عن أرضهم بأموالنـــا للغـــرب دار الأحـــبة
فأنتـم بحمـد الله خيـــر ملوكنـا وعـــزتكـم تعلـــو على كـل عـــزة
وثم ســـلام الله قلـــت ورحمـة عليكـم مدى الأيـــام في كل ساعة

وعلـــى الرغم من هذا الاســـتنجاد؛ فضَّـــل العثمانيون البقـــاء بعيدًا عن الأندلس ومأســـاتها منشـــغلين بحربهم على دولة المماليك في الشـــام ومصر بســـبب نزاعات بدأت في عهد السلطان محمد الفاتح (والد السلطان بايزيد الثاني).

وقد ســـجل أبو البقاء الأندلسي في شعره الذي أُلقي أمام الســـلطان بايزيد حوادث أليمة ذكر فيها أسماء المدن التي عذب أو أحرق أهلها أو ذبحوا بالسيف قائلاً:

فسل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا ... أســـارى وقتلى تحت ذل ومِهنـة
وســـل بلفيقا عن قضيـة أمـرهـا ... لقد مُزقوا بالسيف من بعد حسرة
وضيافـــة بالسيـــف مـزق أهلـها ... كـــذا فعلـــوا أيضًا بأهـل البشـرة
وأنـــدرش بالنـــار أحـرق أهلـها ... بجامعهم صاروا جميـعًا كفحمـة

وهنا لن يمحـــو التاريخ الإســـلامي هذه الفضيحة المدوية التي تكشـــف بصـــدق كيف انحاز العثمانيون لمصالحهم وتركوا الأندلسيين لمصيرهم المحتوم.

المراجع:

1) مظاهر من الثقافة العثمانية.. عبد السلام كمال.

2) النشاط العســـكري في الدولة العثمانية في عهد الســـلطان بايزيد الثاني.. إلهام يوسف.

3) الشاعر الأندلسي أبو البقاء الرندي قصيدة رثاء الأندلس.